وكنّا انتهينا من كتابة هذه الاسطر اذ اتتنا مجلّة الكلمة الاميركيّة تدقّ على نغمة شقيقتها وادّعت أنّنا « تحكّكنا » زورًا بكنيسة الروم الارثوذكسيّة . كأنّ كاتب النسمة بتسطيره مقالتهُ عن الاسفار الثانويّة لم يتحكّك بكنيستنا اوّلًا ولم يزيّف معتقد الكنيسة الرومانيّة بوحي الاسفار الثانويّة فيريد ان نسكت لهُ وقد امرنا بطرس الرسول ان نكون مستعدّين ان نؤدي الحساب عن ايماننا . امّا تمييز صاحب الكلمة بين الاسفار الموحى بها في الدرجة الاولى والاسفار الموحى بها في الدرجة الثانية فلا يرضى بهِ عالمٌ اذ ليس للوحي درجات فالوحي امّا ايجابي وامّا سلبي ليس بينهما وسط . فان ثبت فهو كلام الله الذي لا يزول وان زالت السماء والارض

الرصافيّات والريحانيّات

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

ان صحّ ما قيل انّ الشِّعْرَ مِنَ الشعور فذلك لعمري نعم الاشتقاق فان الشاعر المُجيد هو الذي لا يندفع الى تقصيد القصائد الّا اذا حداهُ اليهِ عاملٌ يحيك في صدرهِ ويؤثّر في جنانهِ فتنبعث قريحتهُ الساكنة وينطق لسانهُ الجامد بشعرٍ هو صورة محسوساتهِ الباطنة فيتغنّى بهِ . وذلك ما يُفرز الشاعر عن الناظم فانّ الشاعر يُترجم عن شعوره وما الوزن سوى آلة في يدهِ ليثبّ عمّا تضمّنتهُ مشاعرهِ امّا الناظم فيكتفي بالقالب ويهتمّ بالصورة الخارجية وطنطنة الالفاظ وبهرج الكلام . ذاك حيّ تنقاد لهُ المعاني فتخرج من فيهِ مكسّرةً بما يليق بها من الالفاظ وهذا ميّت مسجًّى بكفنٍ نظيف نثرت عليهِ الزهور لتستر عن جمودهِ :

اذا نظم اللسانُ بما حواهُ جنانُ المرء فادْعُهُ باسم شاعرْ
وان سبق الشعورَ لزومُ وزنٍ فما هو بالحقيقة الّا نائرْ

ولعلّ هذا الشعور هو الذي امتاز بهِ الشعر الجاهليّ عن سواهُ فانّ الشعراء الاقدمين كانوا اذا تغنّوا بالقريض جعلوا نظمهم ترجمان جنانهم ولسان وجدانهم . فلمّا ظهر الاسلام وضع صرارًا على افواههم حتى ان صاحب كتاب الاغاني وابن قتيبة وغيرهما نقلوا عن قدماء النقّادين قولهم انّ الشعر ذهب رونقهُ مع الجاهليّة ويؤيد ذلك

ما حُكم به على إمام الشعراء الأولين على ما روى قوم من الادباء : انّ امرء القيس اشعر الشعراء بيده لواؤهم وهو قائدهم الى النار (١ . وقد اعرب الجهابذة عن اعتبارهم للشعر الجاهليّ بضروب شتى نكتفي بحكمهم عن شعر الاخطل قال ابو عمرو (اغاني ٧: ١٢٧) : لو ادرك الاخطل يوماً من الجاهليّة ما فضّلت عليه احداً . ومثلهُ قول ابن عيدة عن ذي الرمّة (اغاني ١٦ : ١٥٥) : انّ به خُتم الشعر العربي . وذو الرمّة من المخضرمين . والحقّ يقال انّ الشعراء المفلقين بعد الجاهليّة لا يكادون يتجاوزون عدد الانامل ولن اعملت نظر الانتقاد في معظم دواوين الشعراء الذين قاموا بعد الطور الجاهليّ رأيتها غالباً حسنة القشرة عديمة اللباب تكثر فيها انواع البديع وصنوف الاشكال المزوّقة والتفنّن في التشابيه وحسن اللفظ والتعبير . امّا شعور النفس فتراهُ مفقودًا اللهمّ الّا في بعض القصائد القليلة التي قالها اصحابها عن جفن مقروح وقلب مجروح وعواطف حسّاسة وضروريّات مأسّسة كبعض المراثي والزهديّات واوصاف الاحوال

ومن آفات الشعر بعد الجاهليّة حصرهُ في بعض ابواب قليلة لا يخرج الشعراء عن دائرتها الضيّقة كالمديح المبتذل والغزل البارد والنسيب التّافه والرثاء المملّ امّا اذا طلبت شيئاً من اوصاف عجائب الكون او الحوادث الاجتماعيّة وامور السياسة او العلوم المستحدثة فلا تجد منها الّا ما لا يفي بمقصودك ولا يبرّد غليلك . وقد كنّا نطالب في بعض دواوين القرن الماضي لدى وصفنا لتاريخ آداب القرن التاسع عشر شذرات تلذّ مطالعتها فنثبتها في مقالتنا كامثلة يُسَرُّ بها القرّاء فلا نكاد نجد فيها ضالّتنا

وها قد انتهت والحمد لله هذه الحالة الحرجة منذ اختاطت الناشئة العصريّة بالامم المتمدّنة ودرست آدابهم وشعرهم وادركت ما في دواوينهم من المواضيع الشائقة والمنظومات الرائقة في كل ابواب الكتابة فكأنّهم استيقظوا من منام او افاقوا من غفلة واخذوا يقتصّون في العربيّة مدارجهم ويقتفون آثارهم فجاء الشعر العصريّ على رونق جديد مرتدياً بثوب قشيب يتدفّق رقّة ويستفيض حسناً فترى المسلمين والنصارى يتبارون في هذا الميدان ويأتي كل شاعر بما لم يدرُ على الحسبان

ومما ظهر مؤخّراً من المصنّفات في عالم الآداب كتابان الواحد نظم والآخر نثر

---

١) اطلب الاغاني (٧ : ١٢٠) والمزهر (٢ : ٣٣٩) والعمدة لابن رشيق (ص ٦٣)

ذلك شعر بحت وهذا يتقلّد الطرائق الشعريّة وكلاهما موسوم باسم كاتبه : الرصافيات وهي القصائد التي جادت بها قريحة احد افاضل بغداد المسلمين معروف افندي الرصافي. والريحانيات لامين افندي الريحاني اللبنانيّ الماروني فاحببنا ان نصفهما للقرّاء فنقدّر كلًّا منهما قدره

١ الرصافيات

هي مجموع زهاء مئة قصيدة في ٢٣٠ صفحة نظمها الرصافي شاعر بغداد فاجاد بها واصاب المرمى ولمّا مرّ في بيروت قاصدًا الاستانة لينشئ فيها جريدة « العرب » اقنعهُ رصفاؤهُ بان ينشر ديوانهُ فلا تتضعضع منظوماتهُ بالتفرّق والشتات فرضي بذلك وتعهّد جناب محيي الدين افندي الخيّاط بان يتولّى الطبع في غيبة الشاعر بل علّق على قصائده تيسيرًا لادراك معانيها شروحًا لم يسمح لهُ مرض عرض لهُ بان يتمّ منهُ سوى ثُلثيه

وقد قلّب جناب متولّي الطبع قصائد الرصافي فحصرها في اربعة انواع فجعل في الباب الاوّل الشعر الواصف للكون إجمالًا فدعا منظوماته الكونيّات. وضمّن الباب الثاني القصائد المتوطة باحوال الهيئة الاجتماعيّة فسمّاهُ الاجتماعيّات. وعنون الباب الثالث بالتاريخيّات لتضمينهِ فيهِ القصائد التاريخيّة. وختم الديوان بالوصفيّات وهو الباب الرابع وآخر الابواب. وقد شعر جناب القائم بهذا التبويب انّ فعلهُ لا يتجاوز التغليب والترجيح اذ يمكن نظم بعض هذه القصائد في ابواب شتى

ومهما كان من امر تنظيم المنظومات فاننا نقول بالاجمال انّ هذا الديوان من ابدع ما أتت بهِ اقلام المحدثين لا ينقصهُ الّا شيء قليل ليُجعل كدستور الشعر العصريّ في ايدي احداث المدارس يشحذون بهِ قرائحهم ويقتبسون من أنوارهِ ليحرزوا أسرار الكتابة. وممّا نشتهيهِ لكمالهِ ان يُضبط بالشكل الكامل وان تُنزع عنهُ بعض الاوصاف الشقيّة التي وان لم تبلغ المجون وخرق الآداب فمن شأنها ان تثير في مخيّلة الصغار اهواء القلب الباطل كوصف الراقصات (ص ١٦٥ وص ٢٠٩) والقبلة في الخلائل (ص ٢٢١) وما رأى الشاعر في بك اوغلي (ص ١٧٤) والمرسح (ص ٢١٧) يُضاف اليهما ابيات قليلة تحصر الفضل في حدود ضيقة كقولهِ في مسامحة الصديق (ص ٢١٢) :

وسامحْ صديقًا قد اساء بفضلهِ ثلاثًا مضى من ذلك الفضل ينفضُ
وبعد ثلاثٍ دَعْهُ فَيْءَ مُسامحٍ فَرَفْضُ الذي دامت اساءتُهُ فَرْضُ

فاين ذلك من قول السيد المسيح لبطرس (متى ١٨: ٢٢) انهُ يجب اذا اخطأ اليك اخوك ان تغفر لهُ ليس سبع مرات فقط بل سبعين مرة سبع مرات

فهذه وامثالها لو نُزِّه عنها الديوان لاوصينا بهِ كل ارباب المدارس واثنينا بهِ الثناء التامّ دون استثناء ولا شذوذ

وقد قدَّمنا الملحوظات على ثنائنا لئلَّا تبقى عثرةٌ في طريقنا فنقول انَّ الرصافيَّ في ديوانهِ قد حقَّق تعريف الشاعر بملء معناهُ فانك لا تكاد تقرأ بيتاً من ابياتهِ الَّا وتتأكَّد ان قائلهُ يُترجم عمَّا طُبع عليهِ ذهنهُ واختمر في ليهِ فينطق لسانه بما كاد يفور بهِ جنانه وايمُ الحقّ انهُ صدق حيث قال عن نفسهِ (ص ١١٢):

الشعر منتزعٌ مني لمبتكرٍ ... ولستُ للشعر في حالٍ بمفتقرِ
دعوتُ عزَّ القوافي وهي شاردةٌ ... فاقبلت وهي نحوي مسرعٌ مذرِ
وسلَّمتني عن طوعٍ مقادتها ... فرُحتُ فيهنَّ اجري جريَ متَّئدِ
اذا أقمتُ اقامت وهي من خدَمي ... وايما سرتُ سارت تقتفي اثري
طابقتُ لفظيَ في المعنى فطابقهُ ... خلوًا من الحشو مملوءًا من العبرِ
واجودُ الشعر ما يكسوهُ قائلهُ ... بوشي ذا العصر لا الخالي من العصرِ . . .

فهذا الوصف للشعر ينطبق كلَّ الانطباق على ما يطلبهُ اهل زماننا من الشعراء المحدثين . وقد بيَّن الرصافي على صورة مبتكرة كيف تخيَّل لهُ الشعر العصري وذلك في قصيدتهِ التي صدَّر بها ديوانه وعنوانها « العالَمُ شِعرٌ ». وقد اعرب فيها عن دقَّة نظر في الشعر الصحيح وشروطه وفنونهِ التي عليها مدارهُ وهذا اوَّلها:

قرأتُ وما غيرُ الطبيعة من سِفرِ ... صحائفَ تحوي كل فنٍّ من الشعرِ
أرى غُرَرَ الاشعارِ تبدو فقيدةً ... على صفحاتِ الكون سطرًا على سَطرِ
وما حادثاتُ الدهرِ الَّا قصائدٌ ... يفوهُ بها للسامعين فمُ الدهرِ
وما المرءُ الَّا بيتُ شعرٍ عروضهُ ... مصائبُ لكن ضَربُهُ حفرةُ القبرِ
تُنظِّمنا الايَّامُ شعرًا وانَّما ... ترذُ المنايا ما نظمنَ الى الاثرِ

ثم تنقَّل بين السماء والارض والبحار فوصف كثيرًا من مناظر الطبيعة واحوال البشر وبيَّن ما فيها من المحاسن الشعريَّة. ودونك واحدًا من هذه الاوصاف:

ويومٍ بهِ استيقظتُ من هجعة الكرى ... وقد قدَّ درعَ الليلِ صمصامةُ الفجرِ
فأطربني والديكُ مُشجٍ صياحهُ ... ترنُّمُ عصفورٍ يُرنِّق في الوكرِ
وممَّا ازدهى نفسي وزاد ارتياحها ... هبوبُ نسيمٍ سجسجٍ طيِّب النشرِ

مار منصور دي بول

شفيع الشركات الخيرية الكاثوليكية وخصوصاً الشركة المنتمية اليه

فقُمْتُ وقامَ الناسُ كلٌّ لشأنهِ كأنَّ صَهيلَ البَيْطرِ في ساعةِ الثَّغرِ
وقد طلعت شمسُ النهارِ كأنها مليكٌ من الأضواءِ في عسكرٍ بَحرِ
بدت من وراء الأفقِ تزفُلُ للعُلى رويدًا رويدًا في غلائلها الحُمرِ
غدت تُرسِلُ الانوارَ حتى كأنها تُسيلُ على وجه الثرى ذائبَ التبرِ
الى ان جلَت في نورها رونق الضحى صقيلًا وفي بحر الفضاء غدت تجري
وأهدت حياةً في الشعاع جديدةً الى حيوانِ الارضِ والنبتِ والزهرِ
فقُلتُ مشيرًا نحوها بحفارةٍ ألا انَّ هذا الشعرَ من ابدعِ الشعرِ

على انَّ جناب الرصافيّ لم يكتفِ بأن يُرضي في شعرهِ أنه عالمٌ بفنون القريض واقفٌ على شروطهِ مُدرِكٌ لخواصّهِ بل هو يُعرب في كل مقاطيعهِ عن نفسٍ رقيقة كجُلَيْدة ادوات الفوتغراف التي لا ينفذ اليها شعاعٌ من النور الّا تأثّرت من روى المحسوسات فرسمت صورتها بكل تدقيق وضبط. وهـا نحن نثبت من شعرهِ فقرات تشهد على قولنا. فمن ذلك روايته لقصّة مطلّقةٍ قُضي على زوجها بمفارقتها لحانهِ بالطلاق على غرّةٍ دون تروٍّ فافتتح القصيدة بوصف تلك الظلومة قائلًا (ص ٥٢—٥٦):

بدت كالشمسِ يحجبها الغروبُ فتاةٌ راعَ تفرقها الشحوبُ
مترّهة عن الفحشاء تَوْد من الخَفِرات آنسةٌ قروبُ

ثم انتقل الى تعريف سبب الطلاق وظروفهِ وما لحقَ بالزوجين لسببهِ من الكآبة:

حليلة طيّب الاعراقِ زالت بهِ منها ومنهُ جا الكروبُ
رعى ورعت فلم ترَ قطّ منهُ ولم يرَ قطّ منها ما يريبُ
توثّقَ حبلُ ودّهما حضورًا ولم ينكثْ ترثّقهُ أنيبُ
فغاضب زوجَها المُخطاء يومًا بامرٍ للخلاف بهِ نشوبُ
فأقسم بالطلاق لهم يمينًا وتلك أليّةٌ خَطَأً وحُوبُ
وطلّقها على جهل ثلاثًا كذلك يجهل الرجلِ النضوبُ
رافق بالطلاقِ طلاق بتٍّ ذوو فُتيًا نصبهم عصيبُ
فبانت عنه لم تأتِ الدنايا ولم يعلق بها الذمُّ المريبُ

فظلّت وهي باكيةٌ تنادي بصوتٍ منهُ ترتجف القلوبُ
لماذا يا نجيب صرمتَ حبلي وهل اذنبتُ عندك يا نجيبُ
وما لك قد جفوت جفاء قالٍ وصرتُ اذا دعوتُكَ لا تجيبُ
أينَ ذنبي اليَّ فدتك نفسي فاني عنه بعدك أتوبُ
اما عاهدتني بالله ان لا يفرّق بيننا الّا شحوبُ
لئن فارقتني وصددت عني فقلبي لا يفارقهُ الرجيبُ...

فأطرق رأسهُ خجلًا واغضى ... وقال ودمع عينيهِ سكوبُ
نجيبهُ أقصري عني فاني ... كفاني من لظى القدم اللهيبُ
وما والله هجرك باختياري ... ولكن هكذا جرت الخطوبُ

وكانَ الشاعر احسَّ بما كان في تلك الفتوى من الظلم فقال:

ألا قل في الطلاقِ لمُوقعيهِ ... بما في الشرعِ ليس لهُ وجوبُ
غلوتم في ديانتكم غلوًا ... يضيق ببعضه الشرعِ الرحيبُ
اراد الله تيسيرًا وانتم ... من التعسير عندكمُ ضروبُ
وقد حلَّت بأمتكم كروبٌ ... لكم فيهنَّ لا لهم الذنوبُ
وهَى حبلُ الزواجِ ورقَّ حتى ... يكادُ اذا نفختَ لهُ يذوبُ

واحسن ختامها بقولهِ:

لعلَّ الله يحدث بعدُ امرًا ... لنا فيخيبَ منهم من يخيبُ

وارقّ من هذه الابيات وصف الشاعر لأمّ اليتيم وهي رواية ينشقّ لها الجلمود الاصمّ. فقال بعد مقدّمة جميلة (ص ١٠٧—١١١):

وبيتٍ بكتْ فيه الحياةُ تعاسةً ... ولاحت بوجه الباس المتجهمِ
بهِ ألفت الايامُ اثقالَ بؤسها ... فهاجت بهِ الاحزانُ فائرةَ القممِ
كأني أرى البُنيانَ فيهِ مهدَّمًا ... وما هو بالخاوي ولا المتهدّمِ
ولكنَّ زلزالَ الخطوبِ هوى بهِ ... الى قعر مهواة الشقاء المجسّمِ
دخلتُ بهِ عند الصباحِ على التي ... ستاني بكاها في الدجى كأس علقمِ
فالفيتُ وجهًا خدَّد الدمعُ خدَّه ... وشعرًا جنى بالبيكا متورّمِ
وجسمًا غيفًا انهكتهُ همومهُ ... فكادت تراهُ الدينُ بعضَ توهّمِ
لقد جئت فوق التراب وحولها ... صغيرٌ لها يرنو ببثّي مُيتّمِ
تراهُ وما ان جاوز الخمس عمرهُ ... يُدبر لحاظَ اليائسِ المتفهّمِ
بكى حولها جوعًا فغذّته بالبكا ... وليس البكا الّا تعلّلة معدمِ
واكبر ما يدعو القلوبَ الى الأسى ... بكاء يتيمٍ جائعٍ حول أيّمِ
وقفت وقد شاهدتُ ذلك منهما ... لمريمَ ابكي رحمةً وابن مريمِ
وقفت لديها والاسى في عيوضا ... يكلّمني عنها ولم تتكلّمِ
وساءلتها عنها وعنهُ فاجهشت ... بكاء وقالت ايها الدمع ترجمِ
ولمّا تناءت في البكاء تضاحكت ... من اليأس ضحك الهازئ المتهكّمِ

ثم وصف الشاعر ما دار بينهُ وبين امّ اليتيم من الحديث:

فقلتُ وفي فلبي من الوجدِ رعشةٌ ... أمجنونةٌ يا ربّ فارحم وسلّمِ

ومذ مَرضتْ للابن منها الثقافةُ ... اشارت اليهِ بالمدامعِ أنْ قُمِ
فقامَ اليها خائرَ الجسمِ فانثنت ... عليهِ فضمَّته بكفٍّ ومِعصَمِ
وظلَّت لهُ ترنو بعينٍ تجودهُ ... بفذٍّ من الدمع الغزيرِ وتوأمِ
فقال لها لمَّا رآنيَ واقفًا ... أردِّدُ فيهِ نظرةَ المتوسِّمِ
سَلي ذا الفق يا أُمِّ أين مضى إلى ... وهل هو يأتينا مساءَ بطعمِ
فقالت لهُ والعين تجري غروبُها ... واعشاشُها يتذفنَ شلةَ مُضرَمِ
ابوكَ تراث فيهِ سفرةُ راحلٍ ... الى الموتِ لا يُرجى لهُ يومُ مُنْدَمِ
مشى ارمثيًا في المساهد فارقت ... بهِ في بهاوي المارتِ ضربةُ مُسلِمِ
على حينِ ثارت للذوائب ثورةٌ ... أتت من حزازاتٍ الى الدين تنتمي
فقامت بها بين الديار مذابحٌ ... تخوَّض منها الارمنيُّون بالدمِ
ولولاكَ لاختُرتُ الحسامَ فخاتمًا ... ينفيَ من اعصابِ عيشٍ مذمَّمِ
فانت الذي اخَّرتَ امسكَ مريمًا ... عن الموت ان يُودي بأمِّكَ مريمِ

أمريمُ هلَّا بعضَ ما تذكرينهُ ... فانَّكِ ترمينَ الفؤادَ بأسهُمِ
أمريمُ ان الله لا شكَّ ناقمٌ ... من القومِ في قتلِ النفوسِ المحرَّمِ
أمريمُ فيما تحكمينَ تبصَّري ... فان انتِ ادركتِ الحقيقةَ فاحكمي
فليس بدينٍ كلُّ ما يفعلونهُ ... ولكنه جهلٌ وسوءُ تفهُّمِ...

الى ان قال في الختام:

وظلَّتُ لما ابكي بعينٍ قريحةٍ ... جرتْ من اماقيها عُصارةُ مَنْدَمِ
بكيت وما ادري أأبكي تضجُّرًا ... من القومِ ام ابكي لشقوة مريمِ

وليست روايةُ « اليتيم في العيد » (ص ٨٦—٩٣) ومأساة « الفقر والسَّقام » (٦١—٧١) باضعف دليلًا على رقَّة عواطف الشاعر لا يتصفَّحهما القارئ الَّا تسيل من مآقيهِ العبَرات فيرثي لأحوال اولئك المؤسين ويثني على الشاعر الذي بكى فأبكى وليس شواعر الحنان والرحمة على المكوبين فحنَّ عليهم القلوب واورثها الشفقة على مصابهم

ومثلها دليلٌ على كرم اخلاق الشاعر ولطف طباعهِ قصيدتاهُ في « الصديق المضاع » (١١٨—١٢٢) و« اليتيم المخدوع » (٧٥—٧٦) وسمَ فيهما بسمة العار الاصدقاء المهاذقين المتملقين الناكثين للعهود ثم النصَّابين الذين لا يرثون لضعف الاحداث فيمرِّضونهم للتهلكة رجاء الربح الخسيس فكأنَّ شعر الرصافي صدًى لقولهِ تعالى (لوقا ١٧: ١—٢): « الويل لمن تقع عن يدهِ الشكوك فانهُ خيرٌ لهُ لو عُلِّق في عنقهِ حجرُ الرحى وطُرح في البحر من ان يشكك احد هؤلاء الصغار »

على انَّ نفس الرصافيّ ليست رقيقة فقط لكنَّها ايضاً ابيَّة حميَّة لا يسومها ظالمٌ خُطَّة خَسْفٍ فجمعت هكذا بين الشهامة واللين وبين الأَنفة والتعطّف . ولو شئنا ان نثبت قولنا في عزَّة نفس شاعرنا لاتَّسع بنا المجال . وقد ضربنا عدَّة شواهد على قولنا في ما نقلناهُ من شعر الرصافي في مقالتينا السابقتين الحماسة الدستوريَّة (في المشرق ١٢ : ٨١ — ٩٦) ومنظومات الوقائع الدستوريَّة (في المشرق ١٢ : ٨١—٩٦ و ٦٤١—٦٦٤) ومن هذا القبيل قصائد غرَّاء تستفزُّ حماستُها نفوس سامعيها فتتَّقد مع نفس قائلها غيرةً وحميَّة فلا تعود ترضى بالذلّ والصغار . فاسمع رعاك الله ما ترنَّمت بهِ اوتار قريحة الشاعر في وقت الاستبداد فقال في « تنبيه النيام » (ص ٧٧—٧٩) :

عجبتُ لقومٍ يخضعون لدولةٍ يسومهمُ بالموبقات عميدُها
وأعجبُ من ذا أنَّهم برهبوتها واموالها منهم ومنهم جنودُها
اذا وُليت أمرَ البلادِ طُغاتُها وساد على القوم السَّراةَ سَودُها
وأصبحَ حرُّ النفس تعلو كرامُها يُردُّ مهانًا عن سبيلٍ يريدها
وصارت لئامُ الناس تعلو كرامُها ويعلو لئيدًا في التَّشبُّهِ بليدُها
فما أنت الَّا أيُّها الموتُ نسمةٌ يعزُّ على اهل الحفاظِ جحودها

ومثلها قولهُ يخاطب وطنهُ بغداد في « ايقاظ الرقود » من مخمَّس طويل كلُّهُ ناطقٌ عن نخوة عربيَّة صادقة (ص ٨٠—٨٦) :

اليكِ اليكِ يا بغدادُ عنّي فانّي لستُ منكِ ولستِ مني
ولكني وان كبر التعجّي يهزّ عليَّ يا بغدادُ اني
اراك على شفا هولٍ شديدٍ . . .
ترقّى العالمون وقد هبطنا وفي درك الهوان قد انحطّطنا
ومن نفث الحضارة قد شحطنا فقطنا يا بني بغدادَ قطنا
الى كم نحن في عيش الفرودِ . .
حكومةُ شعبنا جارت وصارت علينا تنبذُ بما اشارتْ
فلا احدًا دعتهُ ولا استشارت وكلُّ حكومةٍ ظلمت وجارتْ
فبشّرها بتمزيقِ الحدودِ . . .

ومثلها تحمّسًا قصيدتهُ المعنونة « رقية الصريع » (٩٦—٩٨) اوَّلها :

يا عَدْلُ طال الانتظارُ فعجّلِ يا عَدلُ ضاقَ الصبرُ منكَ فأقبلِ
كيفَ القرارُ على امور حكومةٍ حادت جميعًا عن الطريقِ الأَمثلِ
في الملك تفعل من فظائع جورها ما لم تقُلْ وتقولُ ما لم تَفعلِ
أضحتْ مناصبها تُباعُ وتُشترى فغدت تُفوَّضُ للغبي الاجهلِ

تُعطى مُؤجَّلة لمن يبتاعها ومتى انقضى الأجلُ المسمَّى يُنزَلِ
سوقٌ تُباع بها المراتبُ سُمِّيت دارَ الخلافة هذه من لم يتقلِ

وليست دونها اباء وترفعاً قصيدة « سوء المنقلب » (٩٦–١٠٤) مطلعها:

بغدادُ حبُّكِ رقدةٌ وسُباتُ أوَ ما تخشَّكِ هذه النكباتُ
وَلَمَتْ بكِ الأحداثُ حتى اصبحت ادواءُ خطبكِ ما لهنَّ أساةُ

وهذه القصائد كان الشاعر انشدها قبل الحكم الدستوري وابقاها في مدافن النسيان لئلا يعود إشهارها عليه وبالاً . فلما أُعلن بالدستور اورى زناد قريحته فقال تلك الحماسيات التي نقلنا عنها قطعاً صالحة . لكنَّ الرصافي أحكمُ من ان ينخدع بالبهرجة ولم يلبث ان يرى نقائص كثيرة في الدستور واصحابه فلم يسكت عنها ورشقها بأسهم شعره المطبوع منها قصيدتهُ الحديثة التي لم تُرَوَ في ديوانه فوصف هذه الاحوال السيئة فقال:

شكايةُ قلبٍ بالأسى نابضُ الحرقِ انى قائم الدستور والعدل والحقِ
ملوك عَلَى كل الملوك ثلاثة لها الحكم دون الناس في الفتق والرتقِ
وأقسم اني لا أكون لغيرها مطيعاً ولو من اجلها ضُربت عنقي
فهل ايها الدستورُ تسمع شاكياً بك اليوم يرجو ان يرى نهضة الشرقِ
لقد جئتَ من أفقِ الصوارم طالعاً علينا طلوع الشمس من منتهى الافقِ
فصادفت شعباً أمَّهُ قد تمثلت لقاءكَ حتى جاوزت مبلغ الشوقِ
ولم نبدِ عنفاً حين جئت وانما هتفنا جميعاً بالوفاقِ وبالرفقِ
وظلنا نرجي منك للخرقِ راقعاً ولكن تراخى الامر متسع الخرقِ
بك اليوم اشقانا الأولى انت مُسْعِد لديهم فيا فله للمسعد المُشقي
تراك بايديهم عَلَى الخلق حجةً وانت عليهم حجةً لا على الخلقِ
قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به وسدُّوا على من حولهم منبعَ الرزقِ
كأنَّا لهم شاةٌ فهم يحلبونها وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزقِ
وهم يأخذون الربد من بعد مخضها ولم يتركوا للساكنيها سوى المذقِ...
فما نحن الَّا كالظماء وانتم كساقي بريتا الماء عذباً ولا يسقي...
ألم يبصروا العدل غير طريقهم فان طريق العدل من اوضح الطرقِ
وماذا عسى يجدي سقوط وزارة اذا لم تقم أخرى على العدل والصدقِ
مضى كلُّ من قبل حلمي وان جرى كما جريا حتى قتلتما حتفي...
فيا ايها الدستور فاقضِ بما ترى وأبرقْ ولكن لا تكن خُلَّب البرقِ
ولسنا نريد اليوم حكماً عليهم ولكن نناديهم وندعو الى الحقِ
تعالوا الى امرٍ نساويه بيننا وبينكم في الجلِّ منهُ وفي الدقِ
فان يقبلوا هذا فيا مرحباً بهم والَّا فيا سحق الماند من سحقِ

وما يعجبنا خصوصاً في شعر الرصافي تفنُّنُهُ العجيب في الاوصاف فانك تراهُ على شبه الطائر الرشيق يتقلَّب بكل خفَّة في ارجاء السماء وفي اطراف العمور ويتنقَّل بين الرياض والقفار وبين الجبال والوهاد يدقّق النظر في كل مشاهد الطبيعة فيستمير منها محاسنها ويدمجها في شعره دون تكلُّف. والامثلة على ذلك عديدة كقصيدته « بني الارض » (ص ٢٩) و« من اين الى اين » (ص ٢٧) وفيها يخاطب كل اسرار الكون:

يا قرَّة الجذب أطلقيني من ثقلة اوجبتْ هُزالي
لولاكِ لولاكِ يا شكالي لطرتُ كالنور في الفضاء ...
وانتِ يا كهربا سرٌّ بدا وما زال في غشاء
عجائبُ الكون وهي شتَّى فيك انطوت أيُّما انطواء ...

ومثلها في قصيدته « أليكني يا ضياء » (ص ٤١):

أجذكِ يا كواكبُ لا تُرينا بياناً منكِ يخبرنا اليقينا
كأنَّ السالكَ الطوريَّ سِفرٌ نظالمهُ ولسنا نُفصحينا
نحاول منهُ اعرابَ المعاني بتأويلٍ فترجع مُعجمينا
كواكبُ في المجرَّة عائماتٌ حكت في بحر فسحتها السفينا ...
تَرُدُّ الغايةُ اذا رأتنا لو انتظمت لها عقداً ثمينا ...

ومثلها المعارف الحديثة والعلوم العصريَّة فانَّ شاعرنا البغداديَّ عرف من اين تُؤكل كتفها فاستمدَّ منها كثيراً من اوصافه كقوله في وصف القطار (ص ١٦٨):

وقاطرةٍ تجري الفضا بدُخانها وتملأ صدرَ الارض في سيرها رُعبا
لها منخرٌ يُبدي الشواظَ تنفُّساً وجوفٌ به صار البخار لها قلبا
تشتُّ بنا ليلاً تجرُّ وراءها قطاراً كصفِّ الدوح تسحبهُ سَحبا
فطوراً كصفِّ الريح تجري شديدة وطوراً رخاءً كالنسيم اذا هبَّا
تساوى لديها السهلُ والصعبُ في السُّرى فما استوهلت سهلاً ولا استصعبت صعبا
تدكُّ متون الحزن دكّاً واهيا لتنهبَ سهل الارض في سيرها نهبا
يمرُّ بها العالي فتعلو تسلُّقاً ويعترض الوادي فتجتازهُ وثبا
وتخترق الطودَ الأشمَّ اذا ابترى وقد وجدت من تحت فتّهِ ثقبا
يرنَّ بجوف الطود صوت دويّها اذا ولجت في جوفهِ النَّفَقَ الرَّحبا
لها صَيحةٌ عند الولوج كأنها تقول بها يا طود خلِّ ليَ الدربا ...

وفي شعر الرصافي غير ذلك من المحاسن يقضي علينا حرَجُ المكان بالسكوت عنها وفي ما سبق ما يشهد على صدق مديحنا فعسى كلامنا يبعث في قلوب قرَّائنا الرغبة في مطالعة هذا الديوان الفريد وفي شعرائنا اقتفاص آثاره الطيِّبة

٢ الريحانيات

أسكرتنا الرصافيات فكادت تُنسينا الريحانيات. وأنا لعمر الحق كنا نود ان نطرئ نثر اللبناني كإطرائنا شعر البغدادي وقد قدمنا انّ الشعر بالمعاني اكثر منهُ بالوزن. وزدنا في مطالعتها شوقاً انّ بعض الكتبة مدحوا « سموّ خيالها الشعري ودقّة مسلكها النظري » وادّعى صاحبها انها « شعر منثور » فطلبنا فيها صورتها الشعرية « المنسوجة (كما قالوا) من خيوط الشمس والملوّنة بألوان الحقول » او معانيها الفلسفية والاجتماعية بيد أنّا عُدنا من الوجهَين بخفّي حنين

امّا الصورة الشعرية فاني لستُ انكر انّ في انشاء الريحاني بعض الشبه بمقالات العصريين من الكتبة بين الفرنسويين والانكليز والايطاليين فجرى في العربية مجرى اولئك الكتبة في لغاتهم وكثيرون من أدبائنا المحدثين اخذوا منذ سنين ينهجون هذا المسلك وليس هو بالوعر ولعلّ بعضهم يلتجئون الى زخرف الانشاء وتزويق الكلام ليستروا فقر معانيهم وعقم افكارهم وعلى كل حال لو قابلنا بين انشائهم وانشاء الريحاني لما رأينا فرقاً بينهُ وبينهم بل منهم من يفوق عليهِ في معرفة اللغة وفضلهُ في ابتداع التشابيه وابتكار التعابير اللطيفة

ثم انّ للشعر مزيّةً أخرى لا نُدحة عنها لناظمه نريد سداد الكاتب والصواب في كلامهِ قال الشاعر:

فان لم تجد قولاً سديداً تقولهُ فصمتُك عن غير السَّداد سداد

فان كان السداد فرضاً واجباً على الشاعر فما قولك بهِ على الناثر. وهيهات ان يحلي الريحاني كتاباتهِ بهذه الصفة كما سترى

فهلمّ الآن الى الوجه الثاني من المزايا المنسوبة الى الريحانيات اعني المعاني البليغة والحكم الاجتماعية والنظر الفلسفي حتى انّ البعض سمّوا كاتبها « بالفيلسوف الصغير »

اي والحق انّهُ لصغير وأصغرُ الصغار لأنّ الفلاسفة كما أجمعَ على تحديدها ارسطو وكبار الحكماء من بعدهِ هي معرفة الاشياء بعللها القاصية والله سبحانهُ وتعالى علّة العلل وسبب كل المسبّبات يؤدي بنا الى معرفته نور العقل فضلاً عن الايمان. وترى الريحاني في كثير من كتاباتهِ يجهل تلك العلّة القصوى ويلقي في العقول زوّان الشكوك في وجودهِ تعالى وفي اصل الكائنات وغايتها. فاسمع أيها القارئ وردّد كلمة السيّد المسيح

على صليبه : « اغفر له يا ربّ فانّهُ لا يدري ما يفعل » ولا ما يقول . وتحقّق ما في كلامه من النَّفَس الشعريّ زه ! زه ! قال (ص ٢١٧) سامحهُ الله :

« الجرذان في قبوكَ لا يعرفون ما اذا كان القبو ثابتاً الى الابد او الى حين ولا يعرفون مَن شيّدهُ ولماذا . انّما هم يعيشون في زاوية منهُ او بالحري في ظلماته فيجدُّون في طلب رزقهم ويدافعون عن انفسهم ويحربون من وجه الحيوانات المتسلّطة عليهم فيضاعفون فلهم ويضاعفون في ذلك عذابك هذه زبدة حياتهم ومصلها في القبر الذي بنيتَهُ لنفسك لا لهم . والبشر في هذه السيّارة الصغيرة التي تُدعى الارض انما هم سبلٌ شأنك كالجرذان فانّنا نعمل كأحقر المخلوقات في الظلمات ولا نعرف ما اذا كان العالم ثابت (كذا) الى الابد او الى حين ولا نعرف الغاية التي من اجلها شُيد هذا القبو الذي يُدعى الارض ولا الغاية من وجودنا فيهِ ناهيك عن قصد البنّاء العظيم الذي . . . هيّ ! انا نحن كالجرذان » (كذا بحرفهِ)

فما ابدع هذا الكلام الشعري في فم « الفيلسوف الصغير » بل « الجرذون الكبير » وهو الاسم الذي اختارهُ لنفسهِ فليتمتّع بهِ . ومثل هذا قولهُ في محلّ آخر (ص ٢١٤) انّ الفلاسفة كلّهم حتى اليوم « لم يورثوا العالم سوى الاوهام والشكوك » وان « الكون كيفما نظر اليهِ العالِم يظلّ فوق علمهِ » فما احرى بالانسان ان يعود الى الهمجيّة ويعيش كالعجماء اذ لم يستطع على قول « الجرذون » ان يقف على بعض حقائق الكون والحياة !

وقس على هذا اقوالاً كثيرة بل مقالات واسعة يُستشفُّ منها روح الكفر بل يجاهر بهِ علناً دون حياء ولا خجل كمقالتهِ عن فُلتير (ص ١٦٠) حيث يحضُّ كل اديب سوري (كذا) ان « يخرج من عالم الخرافة المظلم الى بلاد الحريّة العامرة فيذهب توًّا الى فُلتير ليقدّم لهُ الجزية » وما ادراك مَنْ فُلتير ! أوخم الكتبة وارذلهم الذي خان وطنهُ وباع دينهُ وقوّض اركان كل تمدُّن وهيئة اجتماعيّة . ومثلهُ جان جاك روسو الذي شرَّفهُ الريحاني بمقالة كفلتير . فاسمع وصف السيّد جمال الدين الافغاني لهذين الرجلين الاثيمين واقضِ القضاء الواجب في الريحانيّات وصاحبها . قال ولله درُّهُ من قائل :

« الشعب الفرنساوي شعبٌ كان قد تفرّد بين الشعوب الاوروبيّة . . فرفع منار العلم . . وصار مشرقاً للتمدُّن في سائر الممالك الغربية . . . . حتى ظهر فيهم « وولتير » و « روسو » يزعمان حماية العدل ومنالة الظلم والقيام بانارة الافكار وهداية العقول فنبشا قبر أبيقور الكافر وأحييا ما بلي من عظام الدهريّين ونبذا كل تكليف ديني وغرسا بزور الاباحة والاشتراك وزعما انّ الآداب الالهيّة جملتهُ خرافيّة كما زعما انّ الاديان مخترعات احدثتها نقص العقل الانساني وجهر كلاهما بانكار الالوهيّة . . . فاخذت هذه الاباطيل من نفوس الفرنساويين ونالت من عقولهم فنبذوا الديانة العيسويّة . . . والاضاليل التي بثّها هذان الدهريّان « ولتير وروسو »

هي التي اضرمت نار الثورة الفرنسوية ثم فرّقت بعد ذلك اهواء الامّة وافسدت اخلاق الكثير من ابنائها . . . واوغلوا في سبل الخلاف . . . حتى تباين صدمهم وذهب كل فريق يطلب غاية لا يرى وراءها غاية . . . »

فهؤلاء وامثالهم من الأنذال هم الذين مدحهم الريحاني وطلب من كل سوري اديب ان يقدّم لهم الجزية بخ ! بخ ! فنعم المادح ونعم الممدوحون !

فليس عجب بعد هذا ان كان الريحاني يصوّب سهام كفره الى الدين النصراني خصوصاً بعد نبذه كل دين . ولا يظنّنّ ادباء المسلمين انّ الريحاني يعتبر ديانتهم لقوله (في الصفحة ٢٢٠) :

« من اجلّ ما قرأته في الكتب المقدّسة نغمة القرآن فهي صلاة جديرة بان يردّدها قلب حيّ كل انسان كل يوم من السنة : اياك ربّ . . . نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم »

فانّ كاتب هذه الاسطر يسخر من دينهم كما يسخر من دين نفسه لانّ على زعمه (ص ٢١٤) اي دين كان يمكنه ان ينير القلب من الانسان « ولا فرق ان يذكر المرء مع الدراويش او يسجد مع اليسوعيين او يغتسل في نهر الغنج مع البوذيين » (كذا)

وقد حكم في محلّ آخر (ص ١١٢) بما يهتك ستر غباوته حيث قال ان « المسيحيّة في حالتها الحاضرة لعدوّة المسيح وان يسوع وكنيسته على طرفي نقيض »

هذه بعض اقوال رجل ماروني يبصق في وجه ديانته علانيةً وما تعزّز بعض كتبة الجرائد من الثناء على كتابه ! !

وان كانت هذه معتقداته في الدين فانّ مبادئه الادبيّة على مثال دينه فانّ الريحانيّات في كل صفحة من صفحاتها تتضمّن مبادئ ماتبة سيّئة واصولاً فاسدة ثوريّة فتارةً يشنع على اصحاب السلطة الدينيّة وتارةً يزري بكل سلطة مدنيّة حيناً (ص ١٦٤) ينسب الى الجبر الاعظم ما هو براء منهُ اغراء به وحيناً يحرّش الفقراء على الاغنياء وطوراً يستمع التسيمات الباطلة فلا يرى في كل ما هو شريف جليل سوى دغل وخداع ومكر . واذا رفع عملاً صالحاً لا ينوي الّا تنكيس صالح آخر كأنّ الخير عدوٌ للخير . اسمع بعض « بذوره للزارعين » (ص ٢٠٨) :

انّ حسنة واحدة تأتيها لغير من يالٍ بالصلاة تجيبها (كأنّ الصلاة ليست من الحسنات !)

انّ التعبّد لغي الصالحات لا في تمتمة الصلوات (كأنّ المصلّين بيناوات يتمتمون ولا يدرون ما يقولون !)

ربَّ صغار يلبسون اصدق من شيوخ يتورَّعون (كأن الشيوخ المتورِّعين مراؤون منافقون مثلهُ !)

ربَّ عصفة في مرتفعات الوجود اصحّ ديناً من راهبات السجود (انظر رعاك الله كيف يحكم هذا الكاتب بأولئك الملائكة اللواتي يصرفن حياتهنَّ باتهاد غضب الله بصلواتهنَّ . وكأنهُ ليس بترجمة مئات من راهبات المحبَّة اللواتي يخدمن كل المرضى اليائسين بمحبَّة سماويَّة !)

ربَّ كافر عمَّال للخير احبُّ الى الله من راهب في الدير (كالريحاني مثلاً الذي يقضي حياتهُ في البرّ والصلاح وكل يعرف مبرَّاته العديدة !!)

فيرى القرَّاء انَّ هذا الكتاب اقبح مـا طُبع الى اليوم في الشرق من التآليف الكفريَّة ونتعجَّب انَّ طبَّاعاً ينتسب الى الطائفة المارونيَّة تولَّى نشرهُ وشارك بذلك المؤلف بكفره كما يشاركهُ باءة هذا الكتاب وقرَّاؤهُ دون رخصة من المفوَّضين بذلك. فانَّ قوانين البيعة تضرب بالحرم من يسعى بكتابة مثل هذه المصنَّفات ومدحهـا في الجرائد ونشرها في الاسواق . وأملنا كل الامل من رؤساء الطوائف الكاثوليكيَّة ان يحذّروا ابناءهم من قراءة هذا التأليف لئلَّا ينفث فيهم سمَّهُ . فشتَّان بين الرصافيات والريحانيَّات وشتَّان بين خمر وخلّ.

مطبوعات شرقية جديدة

K. Jnostranzew Persidskaja literaturnaja tradizija w pierwije wieka islama. *S. Petreburry,* 1909.

تأثير آداب لغة الفرس في تآليف العرب في صدر الاسلام

لا يخفى على احد ممَّن له المام بتاريخ العرب القدمـاء وآدابهم ما كان للدولة الساسانية من التأثير عليها في كل احوالها فقد تبيَّن من ابحاث المستشرقين العديدة مـا اقتبسهُ الاسلام مع توالي الأيام من معتقدات قدمـاء الفرس وعوائدهم . امَّا ارازهم السياسية فتأثيرها قد تجاوز حدّ الدولة العبَّاسية الى الدول غير العربيـة التي قامت على أنقاضها . فان كتاب « سياسة نامه » الذي ألَّفهُ نظام الملك وزير الدولة السلجوقيـة الشهير ليس الَّا مرآة التمدُّن الساساني . لكنَّ اشدّ ما كانت قوَّة هذا التأثير في آداب اللغة العربية في القرون الاولى للهجرة ولا حاجة الى ذكر تقلبات كتابيْ « الف ليـلة وليلة » و « كليلة ودمنة » فان من المعلوم أن العرب اخرجوا هاتين الدرَّتين الثمينتين من بحر آداب بني ساسان كما استمدَّها هؤلاء من كنوز الهنـد . ولم يكتفِ العرب